

## معالم المنهاج السبينوزي في الفكر الفلسفي

الباحث: أيوب عماري<sup>(١)</sup>

مراجعة وإشراف: أ.د. منير بهادي

الحقيقة في منهجها لا في متنها، في تقنياتها التي بها نسبك المعنى ونعقله. وهو ما يتماهى مع إرادة المناهج الما بعد حدثية، والتي انتشر كل فريق منها في بقعة من أصقاع الأرض بعد أن اندثرت فلسفات النسق. فنجد الفينومولوجيا في ألمانيا والوضعية المنطقية في البلدان الأنجلوساكسونية والوجودية والبنوية في فرنسا، والشكلانية والأسلوبية في روسيا، فضلا عن منهج التحليل النفسي والتاريخي والاجتماعي والتكاملي .. كمنهاج عابرة عبر الأوطان، إذ يمكن عبر هذا تكوين جغرافيا للميتودولوجيات المعاصرة والتي يكشف لنا السبر الجينيولوجي عن عدم وجود فجوة بينها وبين الميتودولوجيات السابقة. فهناك تناسق قوي بين الفينومولوجيا والهيرومنطيقا، وبين الفلسفة المثالية لـ"شيلنج" و"فخته" في ألمانيا، وبين التجريبية والتحليل الوضعي المنطقي عند الأنجلوسكسونيين. ونحن هنا نطبق مفهوم التناسق لسيميائية "جوليا كريستيفا"<sup>1</sup> Julia Kristeva أو الحوارية *dialogisme* كما يعرفها "ميخائيل باختين" *Mikhail Bakhtine*، بحيث تكون المناهج المعاصرة صدى للكثير من المناهج التي ظهرت في الفلسفة الحديثة.

ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهرت ثلاث مناهج كانت هي الأم في الشجرة الجينيولوجية للمناهج المعاصرة ألا وهي المنهج العقلاني مع "ديكارت" و"سبينوزا" و"لايبنتز" والمنهج المثالي الألماني مع "هيجل" و"شيلنج" و"فخته" والتجريبية الإنجليزية مع "فرنسيس بيكون" و"جون لوك" و"ديفيد هيوم".

\*- مخبر الفلسفة وتاريخها- جامعة وهران2.

1- أنظر: نوافذ، مجلة دورية تعنى بترجمة الأدب العالمي، النادي الثقافي الأدبي بجددة-المملكة العربية السعودية، العدد 35، مارس 2006 ص 24.

ولقد وقع اختيارنا على الميتودولوجيا السبينوزية، لما للمنهج السبينوزي من خصوصية فلقد رصف "سبينوزا" طريقاً متميزاً من أجل الوصول إلى الحقيقة والسعادة معاً. لهذا نتساءل عن الطريقة التي اتبعتها "سبينوزا" من أجل فهم الطبيعة والنص؟ وماهي خصائص الميتودولوجيا السبينوزية وكيف استقبلت في الفضاء الفلسفي؟ وماهي حدودها؟  
أولاً: استيمية الميتودولوجيا السبينوزية :

أ- المناهج التي استخدمها سبينوزا:

إن الميتودولوجيا السبينوزية تجعل من نظرية وحدة الوجود مشروعاً ممكناً، ولقد حاول "سبينوزا" في كتابه: "رسالة في إصلاح العقل" أن يضع نظريته في المعرفة كامتداد للتيار العقلاني. فميز بين ثلاثة ضروب من المعارف، فهناك معرفة من الجنس الأول، أي معرفة بالسمع، أو بالذاكرة، أو بالتجربة الحسية، أو بالمخيلة، وفي المرتبة الثانية هنالك المعرفة الاستنتاجية، والرياضية والعقلية، وفي المرتبة الثالثة هنالك المعرفة الحسية<sup>1</sup>.

وكما يقر بأن الأفكار الواضحة تستمد وضوحها من ذاتها لا من العالم الخارجي، إذ تكون الفكرة حقيقية بمقتضى دلالة باطنية محضة.<sup>2</sup> ولا بد من منهج نلجأ إليه لكي نصل إلى المعرفة المتميزة، والتي تتناول هذا العالم لنفهم نظامه و وحدته. لذا لا جرم إن كان "سبينوزا" يحدثنا بلغة الفاهم المستوعب للحركة الفكرية النهضوية التي سبقته، إذ يقول بأن "كل ما يحدث هو ناتج عن نظام أبدي وقوانين حتمية في الطبيعة،<sup>3</sup> وسعادة الإنسان تكمن في معرفة الاتحاد الذي هو كائن بين النفس مع الطبيعة ككل.<sup>4</sup> لذا من أجل فهم العالم بشكل يستبعد أية غائية محتملة، كان لا بد من أن يؤجر "سبينوزا"

---

1 -ALAIN, Spinoza, Gallimard, paris, 1996 p 33

2- ALAIN Ibid, p 34

3 -Spinoza traité de la réforme de l'entendement, éthique, lettres, trad, André l'écrivain, Flammarion, paris, 2008p 13

4- Ibid, p 14

مناهج عقلانية وهي ثلاث مناهج متداخلة ومكملة لبعضها البعض: المنهج التحليلي النقدي والمنهج التأويلي والمنهج الهندسي<sup>1</sup>.

أ- **المنهج التحليلي النقدي**: يفيد التحليل فك وتفكيك موضوع البحث الى عناصره أو وحداته الأولية، سواء أكان فكرة في الذهن أو قضية من القضايا المنطقية أو جملة من جمل اللغة أو واقعة من وقائع الحياة، أيا كان الغرض الذي يسعى إليه الانسان من وراء هذا التحليل. يحاول "سبينوزا" كفيلسوف ديكارتي عقلاني تفكيك العالم، معتمدا على الموضوعية والعقلانية والإقناع، رافضا الأسطورة والخرافة والتحليل الغائي، محاولا إقامة تقييم عقلي للأشياء مجزئا المشكلة إلى عناصرها الأساسية، ففي كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" مثلا، نجده في كثير من الأحيان يقوم بضبط المفاهيم لكي تكون الأفكار واضحة ومتميزة. يقوم بفحص عقلي لتحليل هذه الحدود مقارنة بعضها ببعض، ثم يقارنها بالوقائع ليرى إن كان هناك انسجام وتماسك وتطابق بين هذه الحدود والوقائع، لينقد وينقح. ونموذج ذلك في قوله: "علينا أن نتساءل ما النبي؟ وما الوحي؟ وما مضمونه الأساسي؟ وهكذا بادئين بأكثر الأشياء شمولاً، ثم نهبط منها إلى الأفكار الخاصة بكل نبي، ونصل بعد ذلك إلى معنى كل وحي أتى به نبي وكل معجزة.. ولقد بينا من قبل بأمثلة عديدة الاحتياطات التي يجب علينا اتخاذها كي لا نخلط بين فكر الأنبياء والرواية من ناحية، وبين فكر الروح القدس والحقيقة الأصلية من ناحية أخرى".<sup>2</sup> كما يؤكد على قيمة الوثائق والنقد الداخلي فيقول "إن منهجنا قائم على القاعدة التي تنص على أن معرفة الكتاب المقدس تستمد من الكتاب نفسه".<sup>3</sup> كما قام بالتحليل الجغرافي فقال مثلا بأن

---

1- زين عباس، سبينوزا الفلسفة الاخلاقية، دار التنوير، دط، 2008، ص 17.  
2- سبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، تر: حسن حنفي، مكتبة الأنجلو- المصرية، ط2، 1981، ص 250.  
3- المصدر نفسه، ص 251.

"موسى" لم يكتب مقدمة التثنية لأنه لم يعبر نهر الأردن.<sup>1</sup> و "إن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة."<sup>2</sup>

ب- المنهج التأويلي: يرى "نصر حامد أبو زيد" بأن التأويل جهد عقلي ذاتي لإخضاع النص لتصورات المفسر ومفاهيمه وأفكاره، وهذا مبني على رؤية جديدة للعلاقة بين المفسر والنص، فليست بينهما علاقة إخضاع من الجانب الأول وخضوع من الجانب الثاني فالعلاقة جدلية تفاعلية متبادلة بين الطرفين.<sup>3</sup> ولقد كان نوع من هذا الجدل بين "سبينوزا" والنص، فاضطلع على المدرش *midrash*<sup>4</sup> الذي يعد طريقة عند أحبار اليهود لفهم العهد القديم بأسفاره واصحاحاته. ويمكن الاعتبار بأن التأويل الذي عرفوه تأويل تفسيري مغلق، إذ يقرؤون الإنجيل العبري على ضوء الأحداث اللاحقة عليه، وقرؤون الأحداث الأخيرة على ضوء ما جاء في المرويات العبرية، فهم يأخذون الأحداث المروية ليؤسسوا أطروحة كونية، ثم يستعملون هذه الأطروحة الكونية لتفسير وتأكيد حقيقة الروايات المروية بكل تفاصيلها، مثل أي نشاط هيرومنطقي، إنه يدخل في الدائرة المغلقة.<sup>5</sup> إلا أن "سبينوزا" خرج عن هذا العرف وسلك طريقة تأويلية مبتكرة لمقاربة الأسفار، فهو ينتقل من الفهم الكلي والشامل للمعنى الذي يختزنه النص إلى فهم أجزاء هذا النص فتأويله دوري لكنه ليس تبريري، فنجده يرفض المعجزات ويحاول البحث في الأسس المعرفية والإيديولوجية والتاريخية للوقائع. يمكن أن نعتبر كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" الذي نشره سنة 1670 والذي يبين فيه بأن حرية التفلسف لا تشكل خطراً على التقوى أو على الأمن والسلام في الدولة، بل أن القضاء عليها قضاء على سلامة

1 - المصدر السابق، ص 266 .

2- المصدر نفسه، ص 271 .

3 - نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دار التنوير، بيروت- لبنان، ط1، 1983 ص 6.

4- دفيد جاسير، مقدمة في الهيرومنطيقا، تر: وجيه قاصو، منشورات الإختلاف، الجزائر العاصمة، ط 1، 2007، ص 45.

5- المرجع نفسه، ص:56.

الدولة وعلى التقوى في حد ذاتها.<sup>1</sup> يعد هذا الكتاب نموذج طبق فيه التفسير النقدي التاريخي سابقا في ذلك البروتستانتيين الألمان والجامعات اللائكية أذاك. لذا أعتبر "أول العلمانيين اليهود المحدثين" بسبب تلك الروح النقدية في النظر للنصوص المقدسة. لقد جاء هذا الكتاب في سياق أراد فيه "سبينوزا" أن يقدم مساعدة للجمهوريين ومحاربة التعصب الكالفاني *Le calvinisme* كما يظهر بوضوح استفادته من التفاسير الجديدة لفلسفة التنوير،<sup>2</sup> وتشكيكه في ألوهية مصدر الأناجيل. كما نادى بضرورة تطهير الدين من الخرافة وفيه كذلك فصل بين الفلسفة والثيولوجيا، وانتقد المحاولات التوفيقية والتوفيقية بينهما، ففي نظره أن الحقيقة هي غاية الفكر الفلسفي، أما العقيدة فلا تفتش إلا عن الطاعة والامتثال والتقوى. وتكمن أصالة "سبينوزا" في مقارنته التأويلية للنصوص التي عالجها بنفس الطريقة التي يعالج بها الطبيعة فلقد فاجأ قراءه حينما كتب "إن طريقة تأويل النص لا تختلف عن طريقة تأويل الطبيعة".<sup>3</sup>

لذلك يرى بأن قوانين الله الموجودة في الدين هي عينها قوانين الطبيعة فلا فرق بينهما، وهو في ذلك يضارع منهجيا الهيرومنطقيين الألمان ك: "دلتي" و"شيلر ماخر". كما دافع في هذا الكتاب عن النظام الديمقراطي، فقال: "النظام الديمقراطي هو الأقرب إلى الحرية والعدالة".<sup>4</sup>

**ج- المنهج الهندسي:** لقد استخدم "سبينوزا" المنهج الاستدلالي الرياضي، إذ يمثل كتاب العناصر لإقليدس الأنموذج الصوري لهذا النوع من التفكير. يبدأ "سبينوزا" في كتابه علم الأخلاق بقائمة من التعريفات للمفاهيم ثم يردفها بقائمة من البديهيات والمصادر والقضايا والحواشي واللوازم، ثم يبرهن عليها بطرق رياضية ومنطقية. فيوظف مثلا البرهان بالخلف لتأكيد الكثير من الأفكار، مثل قضية أنه لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران أو عدة

---

1- Spinoza, traité théologico-politique, rad jacqueline lagrée et pierre François moreau, PUF, paris,1999 p 55 .

2- André cresson, Spinoza, PUF, paris, 1950. p67 .

3- Spinoza, traité théologico-politique,ibid p 98 .

4- ibid p 521.

جواهر من طبيعة أو صفة واحدة،<sup>1</sup> ولنأخذ المثال الموجود في القضية الأولى عشر من الباب الأول: الله جوهر يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية- واجب الوجود. البرهان: إذا نفيتم ذلك فتصوروا أن الله غير موجود/ إن ماهيته إذن لا تتطوي على وجوده/ بيد أن ذلك محال/ إذن فالله واجب الوجود.<sup>2</sup>

ويستنبط سبينوزا خصائص الله وصفاته بالطريقة نفسها التي نستخلص فيها الخصائص الهندسية للمثلثات، كقولنا في نظرية "فيثاغورس" إذا كان المثلث ABC قائم فإن مربع الوتر يساوي مجموع مربعي طولي الضلعين الآخرين. ففي قضاياها عن وحدة الوجود نجد هذا الأسلوب اللغوي المركز والمختزل نحو قوله مثلا: "الله أزلي أي أن جميع صفاته أزلية."<sup>3</sup> ولقد عمم "سبينوزا" المنهج الهندسي ليدرس كل شيء بمنظار رياضي حتى عالم الانفعالات والمشاعر يعالجها بالطريقة نفسها التي نتعامل فيها مع الأشكال الهندسية، كالخط والمثلث والمربع. ولقد لاحظ الكثير من شراح "سبينوزا" بأن النية الدفينة من وراء استخدامه للمنهج الهندسي هو الاقتراب من الموضوعية والحقيقة، والابتعاد عن الذاتية وتأسيس الفلسفة كممارسة عقلية صارمة.<sup>4</sup>

ثانيا : تقييم الميتودولوجيا السبينوزية:

أ - الكعب الآخلى للميتودولوجيا السبينوزية:

إن "سبينوزا" أقام فلسفته ميتودولوجيا على التصورات التي وضعها إقليدس في كتابه العناصر *les Éléments d'Euclide*، وهي تحمل تصورات كلاسيكية عن المكان واللغة الرياضية غير أنه بعد معطيات علمية جديدة وتحولات براديغمية هائلة في العقل الهندسي صار ضرب من العبث

1- باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009 ص 34.

2 - المصدر نفسه ص 40.

3- المصدر نفسه ص 55.

<sup>4</sup> MICHEL HENRY, LE bonheur de Spinoza, PUF, Paris, 1<sup>re</sup> édition, 2004, P 13

تأسيس نظريات أنطولوجية ضخمة على منهج أفل عصره، خاصة بعد ظهور الهندسة اللاإقليدية *la géométrie non euclidienne* المتمثلة في هندسة القطع الزائد *La géométrie hyperbolique* للروسي "لوباتشفسكي" والهندسة الدائرية *La géométrie elliptique* عند "ريمان" كما أن المنهج الرياضي إذ ما طبقتاه على العلوم المعيارية نكون قد حملناه ما لا يطيق، فكل منهج وله خصوصيته التي ينبغي أن تتسجم مع موضوعه. وتضيف التيارات الما بعد حدثية ناقدة السبينوزية مقرة بأن مشكل الحقيقة ليس مشكل انسجام منطقي داخلي، وتوافق مع النظام الخارجي للأشياء. إذ لا يمكن عزل الحقيقة عن الإطار الجدلي الذي ينخرط فيه العقل مع الواقع الاجتماعي والسياسي والمؤسساتي والثقافي.

ينتقد هيجل الفلسفة السبينوزية قائلاً بأن خطأها هو أنها بدأت بالجوهر، فهناك خطأ في اعتمادها على نقطة الانطلاق، والفلسفة عنده لا يوجد لها نقطة انطلاق.<sup>1</sup> وعند بعض المعلقين أنه كان له بالأحرى أن يبدأ بالكائن المنتاهي ليصل إلى اللامتناهي بشكل تصاعدي لا تنازلي كما نجد عند "ديكارت" مثلاً.

ب- **صدي الميتودولوجيا السبينوزية على الفلسفات اللاحقة:** كيف استقبلت الفلسفة السبينوزية في الساحة الفلسفية العالمية؟ وهل يمكن الحديث عن فلسفة ما بعد- سبينوزية *la philosophie post-spinozienne*؟ لقد كان للميتودولوجيا السبينوزية تأثير كبير على فلاسفة أوروبا فمثلاً نجد تناصاً قوياً بينه وبين "إيمانويل ليفيناس" في مؤلف الكلية واللاتناهي (*totalité et infini*)، والإتيقا كفلسفة أولى (*L'Ethique comme philosophie première*) حيث دعا "ليفيناس" لتأسيس إتيقا للإتيقا. كما نلمس تناصاً بين كتابه قراءات تلمودية جديدة (*Nouvelles lectures talmudiques*) ومنهج "سبينوزا" في قراءة العهد القديم.

---

1-André DOZ, *Parcours philosophique d'Aristote à Heidegger, tome2, l'harmattan, paris, 2001 p 164 .*

لقد كانت الدراسات التاريخية التي قام بها "سبينوزا" للأناجيل في البحث اللاهوتي السياسي استباقا للبحوث التاريخية المقارنة التي لم يبدأ ظهورها في هذا الميدان، إلا منذ القرن التاسع عشر. ومن الممكن أن يعد بحق رائدا لعلم التحليل التاريخي للأناجيل في عصر لم تكن مجرد فكرة التفسير التاريخي للظواهر الاجتماعية تخطر على بال أحد<sup>1</sup>. كما سبق "فرويد" في تحليل عالم الانفعالات، وكذا في ربط الكثير من الأفكار الدينية بالخوف والجهل اللذان اعتبرهما "بترند راسل" منشأ الدين.

شهدت السبينوزية ازدهارا في ألمانيا القرن الثامن عشر وبدأ النقاش حول فلسفته فقال "هيجل": "إما السبينوزية أو لا فلسفة على الإطلاق"<sup>2</sup> وكما تأثر به "هوسرل" في مؤلفه "الفلسفة علما دقيقا" حيث أراد أن يؤسس منهجا على الطريقة السبينوزية لتكون صارمة مثل أي علم دقيق. وعند "لايبنتز" فلقد أتم مشوار سبينوزا نحو محاولة ترييض الفلسفة وبنائها على أسس عالمية حينما دعا إلى استخدام لغة كوسموبوليتية توحد الكائنات العاقلة والتي تتمظهر في اللغة الرياضية الصورية.

نجح "سبينوزا" كفيلسوف عقلاني ديكارتي في إرساء ميتودولوجيا خاصة به تتميز بعدة خصائص أهمها أنها مرتبطة بالنسق، فلا يمكن فصل ما هو معرفي عن ما هو ميتودولوجي عند "سبينوزا"، كما أنه أفلح في تجاوز التفسير المجازي للنص *L'exégèse allégorique* عن طريق النقد الجذري للعهد القديم. وجدت دعوته ترحيبا كبيرا لما أكد على ضرورة تأسيس لاهوت جديد، تحكمه شروط القراءة النقدية التاريخية للكتب المقدسة التي تعتبر النص ذا مصدر أنثروبولوجي تكون لدى جماعة تاريخية معينة، وليس ذا مصدر ترنسندنالي. كما يعود الفضل إلى هذه الميتودولوجيا في تجسيد الروح الفردية في التأويل، بعيد عن السلط الكهنوتية والمجامع الحاخامية، كما أنه متمم للخط التنويري للفلسفة الحديثة. كما تميزت هذه

1- فؤاد زكريا ، إسبينوزا ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط 1 ، 2009 ، ص 101

2- المرجع نفسه ص 133

الميتودولوجيا بانطلاقها من الله لا من الإنسان أو الذات العارفة، كما هي القضية عند ديكرت الذي بدأ فلسفته بالانا أو بالكوجيتو. بسبب هذا يعتبر سبينوزا من جهة أحد أكبر عمالقة العقلانية من جهة وعميد التنوير، وفي الضفة الأخرى اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية "شيطانا ملحدا أثما"، كما أدرجت كتبه في قائمة الكتب المحظورة المحرم دراستها. كما يجدر بالذكر أن معظم الكتب التي ألفها نشرت بصفة رسمية بعد وفاته، وهذا يشير إلى مدى قوة الصراع بين الأطر الثقافية لعصره وما كان يدعو إليه "سبينوزا" من نقد المقدس والتفسير العقلاني وأن مساحة اللا نص أكبر من النص.